رحيل

جان عبيد: الرئاسة التي لم تأتِ ساعـتها

جان عبيد الذي غاب أمس، طراز فريد بين السياسيين اللبنانيين. نسيج نفسه. الصحافي الذي كان يعرف الكثير، أضحى السياسي الذي يعرف الجميع. لكنه أيضاً ذاك الذي يحتاج الجميع الى معرفته. حاروا في المهنة التي يزاولها منذ أن توقف عن الصحافة عام 1972، قبل أن يكتشفوا أنها السياسة: أن يكون في كل مكان، مع أي كان، يحاور في الثقافات والعقائد والأديان والسياسات، في قلب الأسرار، بلا أعداء، تتقاطع عنده التناقضات ولا تنفجر

نقولا ناصيف

لم يتوقع أحد أن يموت جان عبيد بفيروس. أن تنتقل إليه العدوى فتهلكه. طوال ثلاثة أسابيع انتظروا استيقاظه، فلم يفعل. صباح أمس الاثنين، كيوم اثنين ولد فيه قبل 82 عاماً، رحل.

في جان عبيد كمَنَ سرّه أنه، السياسي، يتصرف كصحافي. لا يرتوي من المعلومات، من غير أن يغدقها بسخاء. أحياناً يحمّل سامعه ما لا طاقة له على حمله، لكنه يحتاج الى معرفته. سرّ المعرفة عنده من سرّ الأداء ومن طول الصبر والأناة. ذلك هو السياق الذي رافق العقود الستّة في حياته.

قبل أن يصبح نائباً ووزيراً صار مرشحاً للرئاسة. ومن دون بلوغ الرئاسة التي عدّها على الدوام «إمضاءً إلهياً» يهبط من فوق أكثر منه يصعد من تحت، كان واثقاً من أن امتحان الرئيس، أي رئيس للجمهورية، ليس في ما سيفعله في المستقبل، بل ما كان فعله في ماضيه. لذا عُدّ من قلّة قليلة من مرشحي الرئاسة لا يخجلهم ماضيهم، ولا يُستغنى عن حاضرهم. إذذاك لا

> **يوم قال لعبد الحليم خدام: أعطوا ميشال عون ما أعطيتم القتلة**

جدال في أن الرجل لن يكون إلا مرشحاً دائماً. أول الرؤساء عرفهم، وهو بعد صحافي، كان فؤاد شهاب. قابله في الحكم وفي الاعتزال، وخرج من عنده بخلاصة أن «الرئيس الصالح هو الرئيس العاقل». الدور المعوّل عليه لالياس سركيس وتعثّر. أما الآخرون الذين سبقوه أو خلفوه، فامتيازاتهم نقاط ضعفهم: كميل شمعون وسليمان فرنجية في صورة «الرئيس القوي»، شارل حلو في صورة «الرئيس الضعيف»، أمين الجميّل «القوي» في مطلع عهده و«الضعيف» في آخره. لكن ماذا عن «الرئيس العاقل» ومن أين يؤتى به؟

خلافاً لميشال إده حينما كان يقول إن الرئاسة مرّت «من تحت المنخار» ست مرات، لجان عبيد رأي مغاير، هو أن «الظروف» تصنع رئاسته لا مواقيت الاستحقاقات فحسب. وهو مصدر اعتقاده بـ«paraphe» إلهي أحلّ كميل شمعون محل حميد فرنجية عام 1952، وشارل حلو محل عبد العزيز شهاب عام 1964، وأمين الجميل محل بشير الجميّل عام 1982، والياس الهراوي محل رينيه معوض عام 1989.

لكل من أولئك ساعته. بين مَن انتظرها ومَن فاجأته، ومَن خذلته. ظل جان عبيد الى لحظة الرحيل ينتظر الساعة التي كانت تدور، من غير أن تتوقف عقاربها.

أول امتحاناته الصعبة كان عام 1989. بيد أن اسمه كان قد طرح في عزّ مداولات اتفاق الطائف بين حافظ الأسد وسعود الفيصل. كان أحد ثلاثة أسماء اتفقا عليها لرئاسة لبنانية تتولى تنفيذ اتفاق إنهاء الحرب: اثنان من داخل البرلمان هما: رينيه معوض والياس الهراوي، وثالث من خارجه هو جان عبيد. طرْح اسمه أزعج نواباً كان يفضّلون مكافأتهم على إنجازهم باختيار رئيس من صفوفهم. فاستقر الخيار على رينيه معوض.

على أثر اغتيال الرئيس المنتخب (معوّض)، بحثاً عن المرشح الذي يطمئن دمشق ويرضيها لخلافته، طلب حكمت الشهابي من رفيق الحريري إحضار جان عبيد من باريس على عجل في طائرته الخاصة. على متنها، عاد معه سمير فرنجية والفضل شلق. كان رفيق الحريري قد خابر جان عبيد وأخطره بأن ثمة موعداً ينتظره مع الرئيس السوري، بعدما تعذّر على نائب الرئيس ورئيس الأركان الاتصال به في العاصمة الفرنسية. شقة جان عبيد في باريس في شارع 2 جادة ديانا، بينما منزل رفيق الحريري يجاوره في شارع 5 جادة ديانا.

بعدما شارك في مأتم الرئيس الراحل في 23 تشرين الثاني 1989، قصد دمشق مساء واجتمع بعبد الحليم خدام وحكمت الشهابي. فاتحاه في انتخابه رئيساً للجمهورية وسألاه عمّا سيفعل مع ميشال عون رئيس الحكومة العسكرية الانتقالية.

ردّ: كما أعطيتم زعماء الميليشيات فرصة الدخول الى السلطة، وبينهم مقاتلون وقتلة، يقتضي إعطاؤه هو أيضاً فرصة.

واقترح تأليف حكومة يشارك فيها الأفرقاء جميعاً، بمَن فيهم سليمان فرنجية وسمير جعجع وميشال عون، على أن يُعهَد إليه إحدى حقيبتي الدفاع أو الداخلية.

قال عبد الحليم خدام: أليس هو الذي يريد تكسير رأس سيادة الرئيس، ودقّ مسمار في نعش النظام؟

ردّ: كان كلام معارك وليس كلام اقتدار. هوبرة في حينه صارت بهورة. كما أعطيتموهم وبينهم قتلة، أعطوه هو.

ساله: قتلة؟

ردّ: بينهم سفلة حتى.

وسمّى اسمين.

سأل خدّام: إذا رفض؟

ردّ جان عبيد: نوجّه إليه إنذاراً بإخلاء قصر بعبدا. الجيش اللبناني هو الذي يوجّهه إليه.

قال: ليس هناك جيش لبناني.

ردّ: نجمع الويته. الجيش اللبناني هو الذي يقود قمع التمرّد.

قال عبد الحليم خدام: لن ننتظر كي تجمع الألوية. يبدو أنك لا تريد للجيش السوري أن يتدخّل.

ردّ: نجمع ألوية الجيش اللبناني، ويكون الجيش السوري قوة إسناد.

قال: إذاً لا تريد دخول الجيش السوري الى قصر بعبدا.

ردّ: اجتاحت إسرائيل لبنان ووصلت الى بعبدا ولم تدخل القصر الجمهوري، مقر كرامة الشرعية. هل يجوز أن تكون سوريا أقل حرصاً على هذه الكرامة، وهل تفعل ما لم تفعله إسرائيل؟

كانت تلك إشارة صريحة الى استعجال دمشق إنهاء ظاهرة ميشال عون، لكن بالتها العسكرية.

بخروجه من الاجتماع، لحق رفيق الحريري بجان عبيد ــ وكان قد حضر نصف الساعة الأولى قبل أن ينصرف ــ وهو يصرخ بعدما أخطره عبد الحليم خدام بفشل الاتفاق: لماذا فعلتَ ذلك؟

قال: هذه ليست ساعتي.

سأل: كيف؟

قال: عندما يريدون رئيساً ليس له أن يبدي ملاحظات على مشروع يُحضَر له، فهذا يعني أنهم لا يريدونه. طلبتُ حفظ ماء الوجه للجميع.

ردّ رفيق الحريري: أخطأتَ.

كرّر: ليست ساعتي.

أخفق التفاهم. أتى من ثم الحوار مع الرئيس السوري كي يفضي الى الخلاصة نفسها.

(هيثم الموسوي)

ستون عاماً من السياسة

أمضى جان عبيد ستة عقود، ثلثها الاول في الصحافة وثلثاها الباقيان في السياسة. ابن علما في قضاء زغرتا صار نائباً عن طرابلس من دون أن يكون من أبنائها، إلا أنه أقام فيها قرابة عقدين متنقلاً ما بين القبة والتربيعة، دارساً في الابتدائية الجامعية ثم الفرير فعند الآباء الكرمليين فإلى ثانويتها الرسمية.

نصف عقوده الستة في السياسة في الجمهورية الثانية المنشأة منذ الاستقلال، والنصف الآخر في الجمهورية الثالثة المنشأة في اتفاق الطائف. بذلك عرف الأولين في حكم لبنان وأبناءهم وأحفادهم، لكنه عرف أيضاً أبناء الحرب الذين أضحوا حكام البلاد.

قبل مقعد طرابلس (1992) الذي قيل إنه من أجله، مسمّى عليه وحده، عيّن نائباً عن الشوف عام 1991، لئلا يحل في أي من مقعدي زغرتا الشاغرين بوفاة سمعان الدويهي ورينه معوض، بعدما حل سليمان فرنجية الحفيد في مقعد والده طوني فرنجية. من ثم أضحى نائباً عن طرابلس في انتخابات 1992 و1996 و2000، قبل أن يعزف في انتخابات 2005 على إثر اغتيال رفيق الحريري. ترشح منفرداً في انتخابات 2009 وخسر رغم نيله 32750 صوتاً، فإذا هو نائبها غير الفائز لمقعد بدا انه لم يعد موجوداً من دونه. ترشح مجدداً في انتخابات 2018 متحالفاً مع نجيب ميقاتي ففاز.

وُزّر ثلاث مرات في حكومات رفيق الحريري: 1992 وزير دولة، و1996 وزيراً للتربية، و2003 وزيراً للخارجية.

إلمامه بالعقل السوري جعله مستشار رئيسين لبنانيين متعاقبين هما الياس سركيس وأمين الجميّل للشؤون السورية. عشية القمّة الاولى مع حافظ الاسد في 29 شباط 1984، اشترط عبد الحليم خدام إلغاء الرئيس اللبناني اتفاق 17 ايار (1983) قبل وصوله الى دمشق. أوشكت القمة أن تتعثر قبل أن يطلب الرئيس السوري من جان عبيد «تخريج» مغزى اللقاء. أعدّ مسوّدة بيان يقضي بتعهد نظيره إلغاءه رسمياً في بيروت بعد أن يُعلن من دمشق اتفاقه معه على هذا القرار. أصرّ عبد الحليم خدام على شرطه، فقال له جان عبيد: الحرب ليست هاربة من دربكم. أعلنتموها وهي قائمة. انتهى الامر بذاك المخرج.

منذ الانتخابات الرئاسية عام 1989 بات اسمه مرشحاً حتمياً لكل استحقاق تلاه: 1998 و2004 و2007.

مدرسته لا تضاهى في دروسها: العلاقات العامة والصداقات المفيدة. عنده تقاطع الاضداد ككميل شمعون وكمال جنبلاط، وسليمان فرنجية الجد ورشيد كرامي، وموسى الصدر وكامل الاسعد، قادة اليسار كمحسن ابراهيم وجورج حاوي واليمين كبيار وأمين وبشير الجميّل، عبد المجيد الرافعي في طرابلس وبعثيي سوريا في بيروت. تقاطع عنده أيضاً الزعماء الفلسطينيون، وأوّلهم ياسر عرفات وجورج حبش.

يُعثر عليه - هو الآتي من أجيال ما قبل الحرب - في أجيال ما بعد اتفاق الطائف كعمر كرامي وسليمان فرنجية الحفيد ووليد جنبلاط وصديقه الحميم لأكثر من أربعة عقود نبيه برّي، أكثر المتحمسين لرؤيته مرة بعد أخرى رئيساً للجمهورية.

ابراهيم الأمين

خيبة المسافة الواحدة

سيكون من الصعب العثور على نقد قاسٍ لجان عبيد. سيكون من الصعب العثور على نص يستهزئ به أو حتى يشمت بموته. وسيكون من الصعب العثور على من يعتبر الكون أكثر أماناً بموته.

بالعكس، ستجد كثيرين، من كل المطارح والجهات، يفتقدون الرجل. سينعاه أشخاص وجهات وقوى متخاصمة، لا بل متناحرة. وستجد الكثيرين من الذين يمدحون دماثة الرجل، وهدوءه، وبحثه عن الأفضل في الصورة.

من الصعب أن تتذكر جان عبيد من دون أن تضحك في سرّك على تعليق يعكس فهماً لما قيل أو كتب، وإن كان من الصعب أن تعثر على ما ينسب إليه مدحاً بفلان أو ذماً بآخر. لكن، لجان عبيد سيرته. له تجربة طويلة جداً في العمل العام. له سعي حثيث للعب دور في نادي الكبار. وهو الذي تعرّف على الكبار في هذه المنطقة، وعرفهم عن قرب، وكان واثقاً

> **لن يكون مهماً أن يحاول الجميع جذب جان عبيد صوبه، لكن المهم ألا ينسب أحد إليه ما لم يؤمن به يوماً**

بحقه في أن يكون واحداً منهم. وهذا ما جعله على الدوام مرشحاً لرئاسة الجمهورية.

يأخذ عليه البعض أنه لم ينضم الى جبهة بصورة جلية. ويأخذ عليه البعض الآخر أنه فوّت الفرص يوم أتيحت له الرئاسة، شرط الاقتراب أكثر من هذا الفريق أو ذاك.

ما أعرفه شخصياً، عن الرجل الذي تعرفت عليه جيداً قبل ربع قرن، أنه كان واضحاً في التمييز بين معرفته بالآخرين، وموقفه منهم. فهو لم يكن يجهل كل من يقف قبالته، لكن، لم يكن هذا شرطاً كافياً لتحديد الموقف. وهذا ما جعله في نظر الغالبية، «صديق الجميع»!

صحيح أن جان عبيد كان مولعاً بالتاريخ الإسلامي والمسيحي - وهو لم يكن ينفي شغفه بهذا التاريخ ربطاً بواقع بلادنا ومنطقتنا - لكن ذلك لم يكن يكفي ليجعله في حصيلة حوار طويل مع نائب الرئيس ورئيس الأركان، ثم مع الرئيس، من التاسعة والربع من مساء 23 تشرين الثاني الى الثالثة إلا ربعاً فجر اليوم التالي، لم تثمر مقايضة الرئاسة باستخدام الجيش السوري لإطاحة ميشال عون، فآل الخيار فوراً الى الياس الهراوي.

امتحان 1989 تكرر أمام استحقاق 1998.

أما الرواية التي لم يكن جان عبيد شاهداً فيها، أو أحد أبطال فصولها، فقصّها عليه اللواء غازي كنعان بعد سنوات على تركه منصبه في لبنان وأضحى وزيراً للداخلية في بلاده. زاره جان عبيد في منزله في دمشق، في 8 أيلول 2005، قبل شهر من انتحاره. إبان حديثهما، في حضور زوجتيهما، روى غازي كنعان ما حدث بعدما استهلّ كلامه معه بالقول: أنا مدين لك ولبلدك باعتذار. ثم قصّ الآتي:

بعد جوجلة بضعة أسماء أفضت الى اثنين فقط، قرّر حافظ الأسد ونجله بشار المفاضلة بينهما هما: جان عبيد وإميل لحود. اقترح الأب الأول، وتحدث عن معرفة به للمرة الأولى عام 1963، وكان لا يزال في رتبة رائد قبل تعيينه قائداً لسلاح الجو، في مكتب رئيس الحكومة السورية صلاح الدين البيطار الذي استقبل الرائد لامتحانه. فتصافحا. حينذاك تعرّف جان عبيد الى الملازم أول مصطفى طلاس والنقيب حكمت الشهابي ومحافظ حماة عبد الحليم خدام.

دارت مناقشة طويلة بين الرئيس ونجله في حضور غازي كنعان، حول المواصفات المثلى للمرشحَين.

قال الرئيس: أنا أثق بجان عبيد الذي هو قوميّ وعربي ووطني قبل وجود سوريا في لبنان وبعده، وهو يبقى نفسه كما أعرفه وأعرف خياراته. إميل لحود عرفته عندما التقيت به للمرة الأولى والوحيدة، ولم ألمس لديه بعدما تناقشنا مدارك سياسية.

ردّ الابن، وفق رواية غازي كنعان: أنا يُريحني إميل لحود لأنه لا يناقش كثيراً كجان عبيد، ولا يُتعبني، ولا يحتاج إلى أن تطلب منه كي يفعل ما تريده سوريا. يريح أكثر ويسهّل عليّ التعاطي معه. وقد لا أحتاج الى الاتصال به حتى.

التفت الرئيس الى غازي كنعان وسأله رأيه في هذه المفاضلة، فانحاز الى خيار الأبن بالقول: معه حق الدكتور بشار. إميل لحود يريح أكثر. لرئيس فرع الأمن والاستطلاع أسباب أخرى سوى ما تحدّث عنه الرئيس وابنه، مرتبطة بدوافع الحكومة، وقد جارى بدوره وجهة النظر هذه. رفض جان عبيد التخلي عن الاسم الأصلي للمدينة الرياضية، وألّب الياس الهراوي ضد هذا الاقتراح، فأطلق رئيس الجمهورية، في إعادة افتتاح المدينة الرياضية، في تموز 1997، بعد ترميمها اسم مُنشئها عليها، شأن ما فعل جان اللحظة السانحة لتصفية الحساب معه.

على أنه عزا لضيفه اللبناني أسباب انحيازه إلى إميل لحود، إلى رغبته في الانتقام منه بعدما أحجم عن استجابة طلبين له في سنة واحدة.

أولهما، عندما طلب رفيق الحريري إطلاق اسمه على «مدينة كميل شمعون الرياضية» بعد إعادة بنائها مذ دمرها الاجتياح الإسرائيلي عام 1982. توسّط لدى عبد الحليم خدام وحكمت الشهابي لإقناع الياس الهراوي بإبدال التسمية التي أطلقت على هذا الصرح المدشّن في 12 آب 1957، وحمل اسم صاحب الفكرة رئيس الجمهورية حينذاك. ذريعة رفيق الحريري أن من غير الطبيعي إعادة إطلاق اسم «مَن أتى بإسرائيل الى بيروت كي يدمرها»، بينما كان هو وراء إعادة بنائها، موجّهاً اتهاماً مباشراً الى الرئيس السابق الذي كنّ له المسؤولان السوريان الكبيران على الدوام كرهاً عميقاً. كُلف غازي كنعان نقل الطلب الى الوزير المختص، وزير التربية والشباب والرياضة جان عبيد، لاستجابة رغبة رئيس الجمهورية، وقد جارى بدوره وجهة النظر هذه. رفض جان عبيد التخلي عن الاسم الأصلي للمدينة الرياضية، وألّب الياس الهراوي ضد هذا الاقتراح، فأطلق رئيس الجمهورية، في إعادة افتتاح المدينة الرياضية، في تموز 1997، بعد ترميمها اسم مُنشئها عليها، شأن ما فعل جان عبيد بعدما سبقه الى الكلام، وكان حاضراً حينذاك في مناسبة إطلاق دورة الألعاب الرياضية العربية الثامنة وليّ العهد السعودي الأمير عبد الله بن عبد العزيز.

ثمة خذلان ثان له، ذو بعد شخصي، عندما توسّط غازي كنعان لدى الوزير أيضاً في امتحان مراقبين تربويين لترفيع أحد الأشخاص لم يفز فيه. لم يستجب، فغضب بعدما وعد مراجعيه بتحقيق هذا الطلب. بيد أنه خاطب جان عبيد بعبارة مستفزّة عبّرت عن غطرسته المعتادة وصلفه: لو كنت أعرف أنك لن تفعل لأمرت أحد مساعدي الاتصال برئيس الجمهورية وطلبه منه، وكان سيفعل. ليس صعباً على مَن خبر غازي كنعان اعترافه بأن كمّاً لا يُعدّ من قرارات الدولة اللبنانية ورجالاتها الحلفاء، صنعها مزاجه وانفعالاته وعصبيّته حتى.

في رئاسة 2004، بعدما بدا أنه المرشح الأوفر حظاً لخلافة إميل لحود، وكان جان عبيد قد تبلّغ قرار دمشق دعم ترشيحه، أتى القرار 1559 كي يقلب الخيارات رأساً على عقب، فيصير الى تمديد ولاية الرئيس الحالي. أتى استحقاق 2007 المؤجل ستة أشهر على نار 7 أيار 2008 في بيروت، واستحقاق 2014 المؤجل 890 يوماً على نار انتظار انتخاب ميشال عون رئيساً.

هكذا الرجل، استحقاقاً بعد آخر، لم تأتِ الساعة.